اختلفت الصورة العامة للدراسات البلاغية باختلاف العصور . وليس من همنا فى هذا الفصل أن نتبع التاريخ . حسبنا أن نلم بأطراف من الثقافة الأدبية فى أوائل هذا القرن ، حين كان كتاب تلخيص المفتاح عمدة الاهتمام فى الأزهر الشريف . وأنت تعلم أن هناك شروحاً كثيرة حول هذا الكتاب ، وكان التعليم فى الأزهر ـ حينذاك ـ يدور فى نفس الفلك الذى تدور فيه صناعة الاعتراض أو الاحتراز الذى كان آية الذكاء فى بعض المناسبات . وكانت المناقشات الجزئية البارعة موضوع العناية ، وظل الإطار العام للتفكير فى معظم الأحيان لا يجرى حوله حوار . وقد عبر الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من الأيام عن توجس أو ريب حينما استمع لدروس البلاغة ، ورأى أستاذه يجادل مع الشراح فى معنى عبارة مشهورة « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » ، ولم يكن الجدل بداهة ـ حول تصورات مختلفة الطابع الكلى . وربما تكون إشارة الدكتور طه مفيدة من بعض الوجوه ، وربما أمكن الزعم بأن حساسية الارتياب فى أمر البلاغة نشأت فى أوائل هذا القرن . وعلى الرغم من أن بعض الباحثين المتقدمين ذهبت بهم شجاعة الرأى وعمق البصيرة مبلغاً يلفت النظر ، فقد كانت محاولات التجدد محفوفة بالصعاب مثيرة لما يشبه القلاقل[1] .

ونستطيع أن نزعم أن الثقافة الأدبية فى المجتمع العربى الحديث فقدت وحدتها أو تجانسها منذ وقت أبعد مما يتصور معظم الدارسين الشباب . وقد يقال إن العثور على كتاب دلائل الإعجاز ، والاهتمام ببعض كتب الأدب التى لم تكن مباحة فى النظام العام للتعليم فى الأزهر ـ كان نقلة فكرية هائلة فى هذا المجال . وينبغى ألا يبخل الدارس إذن بمثل هذه الملاحظات ، والمسألة لا تحتاج ـ فيما أزعم ـ إلى جهد كبير ، فقد أشار الدكتور طه ـ أيضا ـ إلى تفاوت وجهات النظر إلى ما يفيد وما لا يفيد ، وحكى فى أسلوبه الذى لا يقاوم عن استعمال كلمتى القشور واللباب بين الدارسين فى مطلع هذا القرن أيضاً ، فقد كان المحبون لدراسة التلخيص وبعض شروحه يرمون كل الكتب المناوئة ويعتبرونها قشوراً .

---

(١) أذكر من ذلك على الخصوص أن بعض أساتذة الأزهر كان يناقش الأستاذ أمينا فى بعض دعاواه بعد أن أذاع أطرافا منها فى معهد الدراسات العليا للمعلمين ، وكان يغلظ له القول حتى يصرخ : وليس بعد كلام الشيخ عبدالقاهر كلام .